

إبراز القرآن الكريم

أ. د. عبدالعزيز بايندر *

تحل المشاكل حسب القرآن الكريم والسنة المطهرة:

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .. (آل عمران: ١٠٣)

الم* ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (البقرة: ١-٢)

الر تلك آيات الكتاب المبين* انا انزلناه قرءاً عربياً لعلكم تعقلون (يوسف: ١-٢)

يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وانتم تسمعون* ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون (الأنفال:

٤٧ - ٢١)

أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها (محمد: ٢٤)

ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (القمر: ١٧-٢٢-٣٢-٤٠)

لقد نسى المسلمون تدبر القرآن الكريم والإعتصام به عسوراً، وجعلوه كتاباً يتلى لكسب الثواب، وتفسر لعدة آيات معلومات منه للوعظ والنصيحة.

وبعد نسيان مقتضى تدبر القرآن الكريم، تولد لدينا فكرة أنه كتاب مقدس يستحيل الإرتقاء اليه، والمثول بين يديه، ولا يمكننا فهمه وادراك مراميه. وقد اصبح الملتزمون بهذه الفكرة يدافعون بإصرار أن السابقين قد حلوا المشاكل كافة، وعلينا إدراك ما توصلوا اليه.

«اركان الدين واحكامه الضرورية نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المفسرة له، وهي تشمل تسعين بالمائة من الدين ، اما المسائل الخلافية التي تحتمل الاجتهاد فلا تتجاوز العشرة منه. فالبون اذن شاسع بين أهمية الاحكام الضرورية والمسائل الخلافية.

فلو شبهنا المسائل الاجتهادية بالذهب لكانت الاحكام الضرورية واركان الايمان اعمدة من الالماس. تُرى هل يجوز ان تكون تسعون عموداً من الالماس تابعة لعشرة منها من الذهب؟ وهل يجوز ان يوجه الاهتمام الى التي من الذهب اكثر من تلك التي من الالماس؟.

ان الذي يسوق جمهور الناس الى الاتباع وامثال الاوامر، هو ما يحتلى به المصدر من قدسية، هذه القدسية هي التي تدفع جمهور الناس الى الانقياد اكثر من قوة البرهان ومتانة الحججة، فينبغي اذن ان تكون الكتب الفقيه بمثابة وسائل شفافة - كالزجاج - لعرض قدسية القرآن الكريم ، وليس حجاباً دونه، أو بديلاً عنه.» (١)

القرآن الكريم ومحمد ﷺ:

يجلب الله تعالى الألباب والأنظار كافة إلى القرآن الكريم وسيدنا محمد ﷺ.

يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا إليكم نوراً مبيناً (النساء: ١٧٤)

فاما الذين امنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً (النساء: ١٧٥)

مكانة رجال العلم:

اخرجت مكانة رجال العلم في الدين من الآيات التالية:

يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خير واحسن تاويلاً (النساء: ٥٩).

لا يتنازع المسلمون في الأحكام المبيّنة في القرآن الكريم والسنة المطهرة. فمثلاً لا يعارض اي مسلم حرمة اكل لحم الخنزير

والميتة والربا وحقوق الآخرين بغير حق. والإختلاف بين المسلمين يقع في المواضيع غير المبينة بصراحة في الكتاب والسنة، وردّ هذه المسائل الى الله تعالى ورسوله ﷺ يكون بالإجتهد المستند إلى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في تلك المسائل، ويقوم بالإجتهد أولى الأمر وصاحب القول من العلماء الجديرين به.

والآية الثانية المتعلقة بالموضوع هي:

وما ارسلنا من قبلك الا رجالاً نوحى اليهم فاستلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون* بالبينات والزبر وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلمهم يتفكرون (النحل: ٤٣-٤٤)

يفهم من (اهل الذكر) بالدرجة الأولى اهل الكتاب من اليهود والنصارى، وقد فُسر (أهل الذكر) المذكور في هذه الآية أيضاً بالعلماء الذين يجددون معارفهم وهم أهل القرآن والكتاب.

قال الرسول ﷺ «العلماء ورثة الأنبياء» (٢) لذا يجب أن يقوم العلماء بوظيفة التحاكم الى القرآن الكريم المنزل الى سيدنا محمد ﷺ.

وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيراً من الناس لفاسقون* افحكهم الجاهلية ييغون ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون (المائدة: ٤٩-٥٠)

ولئن انتهى وانقرض ورثة الرسول ﷺ من العلماء فمن الذي يرشد الناس ويوجههم الى القرآن الكريم، وكيف يمكن اداء حساب الأفكار التي لا دليل ولا مسند لها من أمثال (انه كتاب مقدس يستحيل الإرتقاء اليه، والمثول بين يديه، ولا يمكننا فهمه وادراك مراميه). على الرغم من آياته البينات التي تدعونا لفهمه وتدبر معانيه.

فلا يفكر أحد بتاتاً نسج الأقمشة بتكنولوجيا القرن السابق، أو تشييد العمران، أو المواصلات بها، ولكن يظهر من يدافع عن تنظيمها بإجتهدات مضت عليها مئة وثلاثمئة سنة.

وتعتبر وجهة نظر الأستاذ النورسي المتعلق بالموضوع ذات معنى ومغزى.

«ان ذهن الانسان ينتقل من الملزوم الى اللازم وليس إلى لازم اللازم - كما هو مقرر في علم المنطق - ولو انتقل فبقصد غير طبعي . فالكتب الفقهية شبيهة بالملزوم، والقرآن الكريم هو الدال على تلك الاحكام الفقهية ومصدرها ، فهو اللازم ، والصفة الملازمة الذاتية للقرآن الكريم هي القدسية المحفزة للوجدان. فلأن نظر العامة ينحصر في الكتب الفقهية فحسب، فلا ينتقل ذهنهم الى القرآن الكريم الا خيلاً، ونادراً ما يتصورون قدسيته - من خلال نظرهم المنحصر - ومن هنا يعتاد الوجدان التسبب، ويتعود على الاهمال فينشأ الجمود»(٣).

وبما أن اتباع الكتاب والسنة لا يكون الا بإتباع أحد المذاهب الحقّة، لذا أعتبر علماء المذاهب اجلاء واصحاب طهر ونصاعة، ويورد الأستاذ بديع الزمان ما يتعلق بالموضوع كالآتي:

«فلو كان قد بين القرآن الكريم ضمن بيان الضروريات الدينية مباشرة لكان الذهن ينتقل انتقالاً طبيعياً الى قدسيته ، ولاثارت الشوق الى الاتباع، ولنبتت الوجدان الى الاقتداء ، وعندها تنمو ملكة رهافة المشاعر لدى المخاطب بدلاً من صممها امام حوافز الايمان وموقفاته.

فالكتب الفقهية اذن ينبغي ان تكون شفافة لعرض القرآن الكريم واطهاره، ولا تصبح حجاباً دونه كما آلت اليه - بمرور الزمان - من جراء بعض المقلدين وعندئذ تجدها تفسيراً بين يدي القرآن وليست مصنفاً قائمة بذاتها.»(٤)

لولا القرآن لما اسلم الناس!؟

لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة* رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة* فيها كتب قيمة (البينة: ١-٣)

تبدأ المسؤولية الحقة بعد سماع القرآن الكريم:

وكذلك انزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت اهواءهم بعدما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق (الرعد: ٣٧)
هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو الله واحد وليذكر اولوا الالباب (ابراهيم: ٥٢)

ينبغي إبراز القرآن الكريم من جديد:

إننا ندعو الناس غالباً بمهارتنا الشخصية إلى الاسلام، بينما كان الرسول الكريم ﷺ يقرأ عليهم القرآن لما أمره الله تعالى به.
هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين

هذا بلاغ للناس ولينذروا به ويعلموا أنما هو الله واحد وليذكروا اولوا الالباب (ابراهيم: ٥٢)

وانذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون (الأنعام: ٥١)
فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً* وكم اهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من احد او تسمع لهم
ركزاً (مريم: ٩٧-٩٨)

افنضرب عنكم الذكر صفحاً ان كنتم قوماً مسرفين (الزخرف: ٤٣)

جزاء الأبتعاد عن القرآن الكريم عظيم:

نحن مسئولون أمام الله حسب القرآن الكريم، بينما اصبح المسلمون يتقاسمون فترة طويلة فكرة مسئوليتهم تجاه الله حسب
اجتهادات بعض الناس وآرائهم، وهذا بدوره قد ولد مفهوم عصمة أصحاب الريادة والقيادة من الخطأ. والذي لا يخطأ هو
الله سبحانه، وقد خطأ الرسول ﷺ أيضاً وهدى من قبل الله تعالى الى الصواب، هذا ما نعلمه.

يستفيد الشيطان وأعدائه من هذا الحال فيقدمون تضليلاتهم وتحرفاتهم على أنها وجهات نظر الرواد والقيادة النموذجيين،
وبما أن الله تعالى لم يتعهد بحفظ وحماية أي كتاب آخر عدا القرآن الكريم، لذا لا يمكننا كون مانعاً امام هذا الحال. ولم
يمكن الوقوف حيال ما دسّت من الأحاديث الكثيرة الموضوعية على لسان الرسول ﷺ، فكيف يمكن الوقوف أمام الأباطيل
الدخيلة بإسم عظماء الإسلام!.

وبالإضافة لذلك فقد يخطأ المرء مهما كان عالماً وفاضلاً، لذا يعتبر الحل الوحيد للأمر من خلال اكسابنا الازهان مفهوم
المسؤولية تجاه القرآن الكريم من جديد، وتنظيم حياتنا بحذافيرها على نمط القرآن الكريم ومنهجه، وإلا تواجهنا في الآخرة
حالة كالآتي:

ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً* يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلاناً خليلاً* لقد اضلّنى عن
الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولاً* وقال الرسول يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً(الفرقان: ٢٦-
٣٠)

وقد طالبنا علماءنا بالذات اتباع الكتاب والسنة، كما قال معن بن عيسى القزاز انه سمع من الإمام مالك قوله: «انما انا بشر
اخطئ واصيب فما وافق الكتاب والسنة خذوه وإلادعوه»(٥)

وقد روى عن ابي حنيفة وبقية العلماء ما يشبه هذا القول.

المذهبية جزاء الإبتعاد عن القرآن الكريم:

وان هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصيكم به لعلكم تتقون(الأنعام: ١٥٣).

اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء قليلاً ما تذكرون (الأعراف: ٣)

وبعد أن أصبحت الكتب الدينية ستاراً أمام القرآن الكريم بدلاً عن كونها تفسيراً له، ساقطت اختلافات وجهات نظر العلماء
اتباعهم الى منازعة بعضهم البعض. واصبح اختلاف الأمة نقمة ومصدر معاناة لا رحمة.

وجهة نظر الأستاذ بدیع الزمان المتعلقة بالموضوع كالآتي:

(فلو وجهت حاجات المسلمين الدينية كافة شطر القرآن الكريم مباشرة، لنال ذلك الكتاب المبين من الرغبة والتوجه - الناشئة من الحاجة اليه - اضعاف اضعاف ما هو مشتت الآن من الرغبات نحو الالوف من الكتب، بل لكان القرآن الكريم مهمينا هيمنة واضحة على النفوس، ولكانت اوامره الجليلة مطبقة منفذة كلياً. وما كان يظل كتاباً مباركاً يتبرك بتلاوته فحسب. هذا وان هناك خطراً عظيماً في مزج الضروريات الدينية مع المسائل الجزئية الفرعية الخلافية، وجعلها كأنها تابعة لها، لان الذي يرى الآخرين على خطأ - ونفسه على صواب - يدعي:

ان مذهبي حق يحتمل فيه الخطأ والمذهب المخالف خطأ يحتمل فيه الصواب!
وحيث ان جمهور الناس يعجزون عن ان يميزوا واضحاً بين الضروريات الدينية والامور النظرية الممتزجة معها، تراهم يعممون - سهواً او هماً - الخطأ الذي يرونه في الامور الاجتهادية على الاحكام كلها، ومن هنا تتبين جسامة الخطر. والذي اراه ان من يخطئ الآخرين - ويرى نفسه في صواب دائماً - مصاب بمرض ضيق الفكر وانحصار الذهن الناشئين من حب النفس. ولاشك انه مسؤول امام رب العالمين عن تغافله عن شمول خطاب القرآن الى البشرية كافة. ثم ان فكر التخطيط هذا، منبع ثر لسوء الظن بالآخرين، والانحياز، والتحيز في الوقت الذي يطالبنا الاسلام بحسن الظن والمحبة والوحدة! ويكفيه بعدا عن روح الاسلام ما شق من جروح غائرة في ارواح المسلمين المتساندة، وما بثه من فرقة بين صفوفهم، فابعدهم عن اوامر القرآن الكريم). (٦)

وقد اغلق هؤلاء دور وقوف المسلمين تجاه العدو كجسد واحد، واكسبوا ابادة بعضهم البعض الإستمرارية.

ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص (الصف: ٤)

ما العمل؟

العمل الذي ينبغي القيام به هو تغير نهج بسيط. وذلك عند بحث حكم لاي موضوع ينبغي النظر أولاً - كما هو مبين فقهاً - الى القرآن الكريم وبعده الى السنة المطهرة، وبعدها الى الإجماع، وبعد هذا كله يمكن المراجعة إلى آراء المجتهدين. ويجب مراعاة هذا التسلسل أيضاً عند إفهام الناس دينهم. فمثلاً: لإجل مطالعة مفسدات الصوم ينبغي تأمل وادراك الآية المتعلقة بالصوم والإمعان فيها ثم النظر الى الأحاديث والإجماع، ودراسة آراء المجتهدين على ضوء هذه المصادر. فمثل هذا التصرف يربطنا بالكتاب والسنة، ويبرز للعيان ما دستها النيات السيئة - إحتيماً - من الخرافات إلى كتبنا. وي طرح الأستاذ النورسي رأيه بالموضوع قائلاً:

(١- اما ازالة ذلك الحجاب من امام القرآن الكريم بتوجيه النقد وتجريح الثقة بولئك المؤلفين للكتب الفقهية الذين يستحقون كل الاحترام والتوقير والثقة والاعتماد.. وهذا ظلم فاضح، وخطر جسيم، واجحاف بحق اولئك الائمة الاجلاء.

٢- او تحويل تلك الكتب الفقهية تدريجياً الى كتب يستشف منها فيض القرآن الكريم، أي تصبح تفسيراً له، ويمكن ان يتم هذا باتباع طرق تربوية منهجية خاصة حتى تبلغ تلك الكتب ما يشبه كتب الائمة المجتهدين من السلف الصالح امثال «الموطأ» لمالك بن انس و«الفقه الأكبر» لابني حنيفة النعمان، فعندئذ لا يُقرأ كتاب «ابن حجر» - مثلاً - بقصد ما يقوله ابن حجر نفسه، بل يُقرأ لاجل فهم ما يأمر به القرآن الكريم، وهذا الطريق بحاجة الى زمن مديد.

٣- أو شد انظار جمهور الناس دوماً إلى مستوى أعلى من تلك الكتب - التي اصبحت حجاباً - اي شداها باستمرار الى القرآن الكريم واطهاره فوقها دائماً، مثلما يفعله ائمة الصوفية، وعندها تؤخذ الاحكام الشرعية والضروريات الدينية من منبعها الاساس وهو القرآن الكريم، اما الامور الاجتهادية التي ترد بالواسطة فيمكن مراجعتها من مظانها). (٧)

الم يأن للذين امنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون (الحديد: ١٦).

الهوامش

- (١) (صيقل الاسلام/ السانحات/٣٤٦)
- (٢) صحيح البخاري/ العلم ١٠، أبو داود/ العلم ١، مقدمة ابن ماجه ١٧، أحمد بن حنبل ١٩٦/٥
- (٣) صيقل الاسلام / السانحات ص ٣٤٨ .
- (٤) صيقل الاسلام / السانحات ص ٣٤٨ .
- (٥) انظر الى نص كلام ابن القيم في إعلام الموقعين، بيروت ١٤٠٧ / ١٩٨٧، ١ - ٧٥ .
- (٦) صيقل الاسلام / السانحات ص ٣٤٩ .
- (٧) صيقل الاسلام / السانحات ص ٣٤٩ .